

مقياس الاستشراق وتاريخ الوطن العربي المعاصر

محاضرة 1:

تمهيد:

لقد أُلّف المستشرقون في جميع المعارف الإسلامية، فلا تكاد تجد مجال يخص المسلمون إلا وتجدوهم قد تطرقوا إليه ، حتى لقد أصبحت كتبهم مصادر للدراسات الإسلامية ليس للأوربيين فحسب بل للعرب والمسلمين أيضا، وقد تأثر بدراساتهم وأراءهم أجيال من الباحثين المسلمين، لذلك نتساءل عن اسباب دراستهم للمعارف الإسلامية ؟ وهل دراساتهم تلك قصدوا بها العلم والمعرفة ؟ أم كانت لهم مقاصد أخرى !!! وماهي المآخذ التي تؤخذ عليهم بل ماهي المكائد والشبهات التي أثاروها في الاسلام ؟

أولا : مفهوم الاستشراق :

الاستشراق في اللغة يعني الاتجاه إلى الشرق وأقرب كلمة إلى الاستشراق هي التَّشْرِيقُ فقد جاء في مختار الصحاح أن التَّشْرِيقُ هي الأخذ في ناحية المَشْرِقِ؛ يقال: شَتَّانَ بين مُشْرِقٍ ومَغْرِبٍ، وجاء في القاموس المحيط التَّشْرِيقُ هو الأخذ في ناحية المشرق وشرِّقوا أي ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق، وقد عرفه محمد فتح الله الزيايدي بأنه مصدر من الفعل السداسي استشرق: أي طلب الشرق.

وفي المعجم الوسيط: شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت، وإسم الموضع: المشرق ، وشرِّقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق، وفي الحديث: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إذا أتيتم الغائط ، فلا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ، ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا .»

أما كلمة الاستشراق باللغة الأجنبية فهي مشتقة من كلمة الشرق " orient " والتي تستمد أصلها من اللغة اللاتينية، ومعناها يتمحور حول طلب العلم والمعرفة

والارشاد والتوجيه مما يعني اعتراف ضمنا أن العلم والمعرفة كان يطلب في هذه المنطقة .

يعرف الباحثون الاستشراق بأنه تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين ، شعوبهم وبلادهم ، وتاريخهم ، وأديانهم ، ولغاتهم وأوضاعهم الاجتماعية ، وحضارتهم وكل ما يتعلق بهم ، وهو أسلوب غربي لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في الشرق، بدراسة علوم وآداب وديانات وتاريخ شعوب الشرق للسيطرة عليه، ويدخل في المفهوم نفسه الدراسات التي قام بها الروس وسواهم من الشعوب الاخرى ، وقد أستخدم مصطلح "المستشرق" في الإنكليزية أول مرة سنة 1779، وبالفرنسية سنة 1799.

اليوم تخل الاوربيون عن هذا المصطلح وأصبح مصطلح الاستعراب Arabistas ، ويصر الباحثين الاسبان على هذه التسمية على أنها تخصهم وحدهم ، لكونهم يدرسون الثقافة العربية التي كانت موجودة في شبه جزيرة إيبيريا ولا يهتمون باللغات الإسلامية الأخرى كالتركية والفارسية.

وبعد تعرض المستشرقون للنقد عن الدور الذي قاموا به في خدمة التنصير والاستعمار ، تخلى الغربيون على هذا المصطلح ، ويذكر لويس برنارد في هذا الاطار إن هذا المصطلح قد ألقى به في مزابل التاريخ، فقد رأى الغرب أن هذا المصطلح ينطوي على حمولات تاريخية ودلالات سلبية فتم الاستغناء عنه في المؤتمر الذي عقد في باريس عام 1973 وأطلق على منظماتهم إسم " المؤتمرات العالمية للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا " .

أ- أسباب ظهور الاستشراق :

يرى البعض أن الاستشراق ظهر مع ظهور الإسلام، فقد سأل هرقل أبو سفيان عن الرسول (ص)، ويعد قيصر أول ملك اهتم بالإسلام، وربما سبقه إلى ذلك النجاشي ملك الحبشة مع اختلاف الدافع بينهما ، بينما يرجعه آخرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري حيث أن يوحنا الدمشقي الذي عاش في العصر

الاموي و خدم في بلاط يزيد بن عبد الملك ، قام بأول محاولة للإستشراق وقد ألف كتابين الأول بعنوان « حياة محمد » والثاني « حوار بين مسيحي ومسلم » وكان هدفه إرشاد النصارى إلى جدال المسلمين.

ويعتبر بعض الباحثين الاندلس المكان الذي نشأ فيه الاستشراق حيث أن الكثير من الاوربيين كانوا يدرسون فيها ومن هنا جاء اهتمامهم بالمسلمين ، كما أن فشل الحروب الصليبية لعب دورا في نشأة الاستشراق، ويرجح مصطفى السباع أن بدايته كانت بمحاولات فردية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، وأوائل المستشرقين قد يكون الراهب الفرنسي جريرت الذي أنتخب بابا لروما سنة 999 م بعد تعلمه في معاهد الاندلس ، ثم بطرس المحترم 1092- 1156 وجيراردي كريمون 1114- 1187 م.

ويمثل عام 1312 منعطفا هاما على صعيد بداية الاستشراق حيث اقرت السلطة الكنسية العالمية في فيننا ضرورة تعليم اللغات الشرقية في الجامعات الاوربية مثل باريس وأكسفورد وبولونيا ، وهذا التاريخ يمثل بداية الاستشراق اللاهوتي فعليا وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية ، ويذكر في هذا الاطار إدوارد سعيد أن الاستشراق اللاهوتي الرسمي قد بدأ وجوده حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي سنة 1312 ، وذلك بإنشاء عدد من كراسي الأستاذية في العربية والعبرية في جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفينيون .

هناك عدة عوامل ساهمت في ظهور الاستشراق الذي يعود أساسه إلى الصراع بين الاسلام والمسيحية ، فالفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وحروب المسلمين مع البيزنطيين من جهة وفتح المسلمين لاندلس واجتيازهم إلى بلاد الفرنجة ووصولهم إلى حوض باريس كان دافع قوي للأوربيين في مواجهة المسلمين .

وعندما زال الحاجز النفسي بعد هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء ، بدأ الأوربيون ينضمون أنفسهم مدفوعين بروح صليبية عارمة، بلغت ذروتها عندما شنت أوروبا حملات كبيرة ضد المسلمين واستولوا على بيت المقدس، هناك عكفوا على

دراسة الثقافة العربية، وقبل ذلك وبعده كانت المدن الإسلامية تعج بالطلاب من أوروبا خاصة المدن في بلاد المغرب، ولم يكونوا جميعاً من الطلاب فقد كان بعضهم يبحث عن الطرق الناجعة لمواجهة الإسلام .

كما أن فشل الحروب الصليبية كان له دور كبير في ظهور حركة الاستشراق من حيث اقتناع الأوربيين بعدم جدوى القوة العسكرية في مواجهة الإسلام وهذا الذي اقتنع به لويس التاسع عندما كان مأسوراً في مصر ، من جهة ثانية فتوح العرب في صقلية والأندلس وجنوب فرنسا ، جعلت أوروبا تستيقظ من غفوتها إلى وعيها الثقافي الجديد ، دون أن يغفل سقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك، وهو عامل مهم من عوامل نشأة الاستشراق فبسقوطها فتح باب أوروبا على الإسلام ، ومن هنا لم تبقى عداوة أوروبا للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب بل ذات أهمية سياسية أيضاً.

ب - مراحل تطور الاستشراق :

يمكن تقسيم الاستشراق إلى ثلاث مراحل المرحلة الأولى وهي قبل سقوط الأندلس وأقول نجم الحضارة الإسلامية، أتخذ فيها الأوربيون دور دفاعياً في وجه الإسلام حيث كانت كتاباتهم تتسم برودة الفعل ودراسة الإسلام من أجل التصدي له، وفيها استقادت أوروبا من الحضارة الإسلامية المزدهرة في الأندلس والمغرب ومصر والشام، أما المرحلة الثانية من الاستشراق فهي مرحلة هادفة من قبل الغربيين إلى دراسة الإسلام عقيدة وشريعة وتاريخاً ، والمرحلة الثالثة شهدت ظهور الاستشراق العلمي بدراسة لسائر أحوال الشرق أديانه وعلومه وتاريخه .

ومن بين مظاهر الاستشراق الأولى تعليم اللغة العربية فقد قامت فرنسا بإنشاء مدارس لتدريس اللغة العربية؛ مثل: ريمس، وشارتر وذلك منذ القرن الرابع عشر ، أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد شهد الاستشراق ازدهاراً في النواحي العلمية والدراسية المتخصصة حيث تم جمع مجموعة هامة من المخطوطات ، وفي تلك الفترة تم إنشاء أول مطبعة عربية في أوروبا من طرف الكردينال فرناندو دي مدتشي دوق توسكانا.

في القرن السابع عشر ظهرت التجارب الاولى لتعاطي المستشرقين مع الدراسات الإسلامية بالإشراف على نشر الكتب ومحاولة تصحيحها، وعندما أقبل القرن الثامن عشر كان الاستشراق قد وطّد أقدامه وتوسع بشكل غير مسبوق، وتحدّدت معالمه إلى حدّ بعيد، حيث شهد إنشاء كُرُسيين للغة العربية في جامعتي أكسفورد وكامبريدج .

وقد مثلت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798 منعرجا هاما في تطور الاستشراق، وكان من نتائجها الاتصال المباشر بالشرق والتعرف على أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويرى بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية تمثل البداية الفعلية للاستشراق، حيث سحب نابليون على ظهر اسطوله عدد كبير من العلماء ، كما جلب معه مطبعة، وقد بدأ هؤلاء المستشرقون في العمل منذ اللحظة التي وطأ أقدامهم فيها مصر، وانتجوا انتاجا ضخما عن مصر، ورغم أن الحملة اخفقت سياسيا وعسكريا الا انها نجحت حضاريا، وتركت اثارها بعد ذلك في البلاد العربية.

وقد راي بعض المفكرين في الوجود العثماني نكسة حقيقية تعرض لها العالم الاسلامي، وانهم يجب عليهم أن يأخذوا من حضارة الغرب ما يمكنهم من الوصول الى التطور، ومن هؤلاء جمال الدين الافغاني، الذي نادى باقتباس الحضارة الاوروبية باعتبارها الوسيلة المثلى لرقى العالم الاسلامي وتطوره.

كما شرع الغربيون في تأسيس الجمعيات العلمية التي كانت نقطة انطلاق كبرى للاستشراق حيث تجمّعت فيها العناصر العلمية والإدارية والمالية، فأسهمت إسهاماً فعّالاً في البحث والاستكشاف، ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الاستشراقية بأسلوب أشمل وأكثر تنظيماً مصحوبة بروح دينية صليبية واستعمارية غربية حاقدة .

وحيثما دخل العالم أعتاب القرن العشرين جرت أحداث هامة وتحولات في العالم العرب ، فوفد عدد كبير من المستشرقين المتخصصين للتدريس بالجامعة

المصرية والعربية، لعل من أبرزهم: نيلليانو، ماسينيون، شاخت، توماس أرنولد، كازانوفا، كراوس، ليتمان، الذين حاضروا في الفقه والآداب العربية والفلسفة والعلوم والفن.

وبدأ جيل جديد من المستشرقين يغوص في أعماق الفكر والدين والأدب العربي؛ فقد اتّجهت عنايتهم بالإسلام وشعوبه وأوضاعه الفكرية والاجتماعية ، وقد تميّز الاستشراق في هذا القرن بتخصّص كل مستشرق في فرع معيّن من فروع المعارف الشرقية، وانهقدت العديد من المؤتمرات، أسهم المستشرقون فيها بنصيب وإفر من البحوث والمقالات، وحرص الأوروبيون والأمريكيون على إنشاء مراكز للدراسات العربية والإسلامية في العالم الإسلامي؛ لتكون أقرب إلى هذه البلاد، يستخدمها الطلاب والباحثون الغربيون كمراكز للبحث والدراسة، ، ولنشر الثقافة الغربية.